... والزنابق تبحث عن الحب

قصة بقلم أميلي نصرالله

كانت لينا واثقة كل الثقة بانها غرست البصلة كما كانت تفعل في السنوات العشر الماضية .

حملتها الى الحديقة في موعد الزرع ، وحفرت في التربة الناعمة حفرة صغيرة ، ثم وضعتها بكثير من الدراية والمحبة وردت فوقها طبقة رقيقة من التراب وهي تتمتم نعاويذ وأدعية لكي تنمو بصلتها معافـاة، بعيدا عن أذى الحشرات والطفيليات .

والبصلة تحتاج لايام قليلة حتى تفرخ ورقاتها الخضراء ، ثم تنطلق من قلبها قصبة مجوفة ، تحمل براعم الزهرة النادرة .

وكانت هذه العملية تحدث ، في السنوات الفائتة ، تلقائيا ،ودون عناء او اشغال فكر . اما اليوم ، فلماذا تأخرت ؟ ألانها مشتاقة اليها ، قلقة عليها ، خائفة ان يكون قد حدث لها مكروه ؟.. وزنبقتها النادرة هذه ، لم تعد مجرد بصلة ترسل أوراقا خضراء وعمودا يشتعل رأسه بالابواق الحمراء ، مرة كل سنة ، مع حلول عيدها ... لقد باتترمزا للحب ، وتعويذتها لرد العيون الحاسدة ... وهي تؤمن بالاشياءالصغيرة في الحياة ، وتجعل لها قيمة ، وتخشى أن تفقدها ، فتفقد معها طعم الوجود وملح العيش .

تمشت في الحديقة ، تتفقد الازهار الاخرى ، الزنابق البيضاء، القرنفل والمنثور .. كلها تتصاعد وتنمو وتشرئب باعناقها الخضراء،وكأنها تتحداها ... وترسل زهراتها الملونةعيونا شامتة، تتألف فيها السخرية، وترقص فرحة الخلاص .

حتى شجرة الورد الجوري المترفعة عن الصغائر التي تتناقلها ألسن الثرثارات الصغيرة في الحديقة ، أشاحت باقمارها ، وانشبت أشواكها الحادة في وجهها .

ـ لماذا القسوة ايتها الاخوات ؟

طرحت لينا سؤالها في الجو ، دون ان تنظر جوابا .

لم تكن في مركز القوة لتتمكن من الرد على التحدي ، او التصدي للاستفزاز .

استنفدت تلك الطاقة من ذاتها .. لا تذكر متى وكيف ؟... ولم يبق لها العزم على الاستسلام والارتماء في مجرى الحياة ، يحملها الى حيثما اتجه .

كان هذا موقفها وهي تراه ينسحب من حياتها ، ببطء .. ولم ترفع اصبعا لتوقفه ، أو لتطلق صرخة احتجاج .

كان حبهما مثل البحر الابيض على شاطيء مدينتهما ، رحبا ، صافي الزرقة ، هادئا ... وعاشا في كنفه دون ان يحسبا للعواصف وفصل المطر والغيوم . بل كان حبهما يحول الايام المكرة الى ربيع دائم الخضرة ، يحيا في نظرات تشرق بالعطف والحنان والاخلاص .

وكانت لينا تغرف من هذا البحر ولا ترتوي ... وتغرف ولا تفكر بان الماء قد ينفد .. .

من يصدق بان البحر يفرغ من مياهه ؟.

* * *

أسندت كتفها الى جذع شجرة الاكاسيا ، وراحت تعب الشذى العابق في الاجواء حولها ، وكأنها ، تحاول بذلك ، استعادة كلمافقدت، الذكريات ، الاوقات العذبة ، ايام الصبا الاولى ... واهم من هذا كله ، حبه .

وعادت كلماته تطرق أذنيها :

« والحب يا لينا ، مثل نبات الجن ، لا أحد يدري كيف ينبت ومتى ينوي .. ولا تقوى العين ان تحدد موقع التربة التي تربط جذوره .

« والحب ، ياليتنا ، كالرياح ، يسافر في كل اتجاه ، واذاحاولت حصره في مكان ضيق ، انفجر به الوعاء ، واصابتك شظاياه .

« و ياليتنا ، لا تفكري بالغد ... لنكن ليومنا الحاضر . لنعشلهذه اللحظات ونقطف زهور السعادة » .

كان صوته يأتيها مع همس النسائم وزقزقة العصافير فوقالشجر، فلا يوقظ في صدرها ، سوى الحسرة .

وصوته من الماضي ، من الايام الاولى للقائهما ، وهو غير الصوت الذي ظل يطن في اذنيها طوال الليلة البارحة ، فيزيد لحظاتها الرتيبة ضجرا وفراغا .

* * *

راحت تتحسس مواطن التقصير في حياتها وتصرفاتها وتتساءل: تراها كانت السبب ؟ السبب الوحيد للوصول بحبهما الى هذه النهاية البائسة ؟

وهو ، ما دوره ؟
وهل نجاح العلاقة او فشله يتوقف على المرأة ؟
ولماذا تحمل نفسها المسؤولية كلها ؟

ولكي تتخلص من رشق التساؤلات هربت ، كما تفعل تجاه كل واقع معقد .. امتطت سحابة خيالها وسافرت في رحلة الى الماضي ،الى ذكريات ايامهما الاولى وراحت تنبشها واحدة واحدة .

كم مرة استعادت تلك اللحظات ؟ اخرجتها من اطارها وانعشتها بماء الزهر ، واستمتعت بها !...

تلك اللحظات المغلفة بالدفء والنور !... كانت تهرع اليها كلما تسلل البرد الى حياتها ، فتقف حيالها تتدفأ ، وتنتعش . وكان وجهه يشرق من داخل تلك الايام فيزيدها ثقة وطمأنينة .

لم تكن في حضوره تطلب شيئا سواه . ولم تشعر معه ، بحاجة الى الكلام . يكفي ان يوجد لتضاء الزوايا المعتمة في حياتها .

يكفي ان يكون ، ليشرق في نفسها ذلك النور ، فينفذ من عينيها، مؤكدا بلوغها قمة الهناء والسعادة .

وكان هو في مثل حالها ، حضورها يسد كل الثغرات ،ويعيضه عن نقائصه جميعها .

وحبها يشرق من عينيها ، كحبال الشمس الذهبية ، فيخترق وجوده لينفذ الى صميم ذاته ، ويدفعه الى مواجهة الحياة بحماسة وفرح .

لم يكن يحفل بمرور الايام ، وأيامهما كانت مسكونة بالحب والمرح.. والارض ما كانت تعني له سوى مساحات من التربة تدوسها قدماها ، او يرفع فوقها الابنية .. أبنية رائعة من تصميمه : « كل بناء هو تمجيد لحبك .. » هكذا أجابها مرة ، حين أبدت اعجابها ببناء شاده فجاء آية في الابتكار والجمال .

ثم اردف :
« كل عجين لست خميرته يفسد ... .
« لا ... لا تقولي ان لي موهبة خارقة ، ومقدرة على الابداع... كل ما أبدعه هو منك ... حين لا الفظ اسمك ترفض الحجارة ان تتلاحم وتتقارب . »

حتى اسمها ، لم يكن يعني لها شيئا ، حتى لفظته شفتاه ،وبعدها صارت تحبه ، وتردده في سرها ، وتعجب به .

* * *

استفاقت من غيبوبتها النرجسية على قطرات ماء ناعمة ترشق يديها ووجهها ، وتتساقط على اوراق الزهور ، فتعانقها هذه بشغف وامتنان .

حاولت ان تقتلع نفسها من مكانها ، فوجدت صعوبة ، وشعرت بألم يعض كتفها المستلقية على الشجرة ، انه الالم الذي ينتابها كلما حاولت التحرك من موقع الى اخر .
وتساءلت : الى أين أمضي ؟
الحديقة بحاجة الى يديها . في كل لحظة تطلب النبتات العناية والرعاية ، لكن القوة التي فارقتها لم تعد .

أحست للحظات ، ان حياتها كحياة النبات ، فاقدة حرية التنقل.. بل هي اقرب الى نبات البحر ، الى نجمة البحر ، تلك التي تتكمش بالصخر ، تحتمي به ، وتخشى ان هي فارقته ، ان يداهمها الخطر.

(لكن الصخر لم يعد يحميك ، يا لينا ، انكشفت ، وعليك ان تخرجي من مخبأك هذا الى عين الشمس ، لتواجهي الواقع .)
الصوت الداخلي ينبهها . .وهي ترفض ان تسمع .

جرّت خطواتها نحو حوض الزنابق ، فاحست بالغضب يسري في عروقها كالكهرباء ... كلها نامية ، وكلها تتحداها بتيجانها البيضاء ، وتفتح ابواقها لتعب قطرات المطر الربيعي بفرح .

وانتقلت نظراتها ، قسرا عنها الى الحوض المتوحد ، حيث غرست بصلة الزنبق الاحمر ، كان التراب جامدا ، قاحلا كوجه افتقد تعابيره.

مدت اصبعها تخدش بظفرها صفحة ذلك الوجه ، ثم غاصت اظافرها واصابع يدها في الثغرة الفارغة .

« البصلة ، اين البصلة ؟ هذا غير معقول ! »
وقفت تردد الكلمات بدون وعي .. وتابعت :

« ربما سرقها احدهم ... العامل الذي يشتغل في الحديقة. يجوز اعجبته زهراتها في الموسم الماضي ، فصمم على اخذها .. نوع نادر لا يجد له مثيلا في السوق .

صنف مدلل ، لا يتكاثر ، وبالتالي لا يصيبه الكساد .
المنحوس ، أخذها . سوف اسأله اين غرسها ، واسامحه ، شرط ان يعيدها اليّ ، ادفع له ما يطلب من نقود .
هل سمعت يا مسعود ، ادفع لك ثمنها .. »
استمرت في الحوار وكأن مسعودا حاضر امامها :

« نعم . قل انك اخذتها .. لا تخف ... يا أخي ، كلنا يطغينا الشيطان ، والجمال لا يقاوم . الجمال مغر ... خاصة جمال الزهور... خاصة الزنابق . ثم ان سرقة النبات ليست سرقة بالمعنى الصحيح .الم تسمع العجائز في ضيعتنا يردّدن : المسيح مر على الخضرة وقطف ..

« ترى ، عملك ليس خطيئة ، ولا جنحة يلاحقك عليها القانون... فقط أنا بحاجة الى هذه البصلة بالذات . أعطيك زنابقي كلها ، وشتلة الورد النادرة ، ونقودا .

« انت لا تدري ،يا مسعود ، السبب الحقيقي لتعلقي بها .الكلام بيننا ، انها هدية ، منه ، نعم . حملها اليّ في عيدي، ومعها حمل اليّ السعادة والطمأنينة ، والفرح .كانت الزنبقة الحمراء فالا خيرا علينا ، وهذه الحديقة لم تنتعش من قبل ، كما انتعشت بوجودها .. وكأنما الزهرات احست بتلك الطاقة الغامضة الجارية في عروق الزنبقة الحمراء ، فقامت تتبارى معها ، وتنافسها لتجاريها في البهاء، وفي التقرب منا .

« أرأيت ، يا مسعود ؟ بالنسبة اليك ، هي بصلة ، وابواقها الحمراء ابواق .. اما بالنسبة اليّ ، فانها تخزن عشر سنوات من السعادة.

انها ذخيرتي ، أحتمي بها دون اذى الاخرين » .
كانت يد لينا قد غاصت في الثغرة حتى الرسغ ، وغرقت انامله في مادة رخوة ، وباردة ، بقيت محصورة بين الاوراق الميتة .

* * *

لا ... مسعود لم يسرق البصلة ، ولا امتدت اليها يد سواه ما تزال هنا ، في قلب التربة انما ضربها التآكل واصابها الاهتراء .

بيروت

املي نصر الله